التنوع الاجتماعي والتعايش السلمي في العراق ـ دراسة نظرية اجتماعية

م. سهام كاظم مطلق
كلية التربية للبنات – جامعة القادسية

ملخص

تتميز المجتمعات الإنسانية بالتعدد والتنوع الثقافي نتيجة اختلاف الخلفيات التي تشكل هذا التنوع. يمكن التعامل مع هذه الاختلافات بوعي من خلال تحويل التناقض إلى تكامل، والتحول من التصادم إلى التعايش، ومن التعصب إلى التسامح. إن التنوع والاختلاف في الكون واقع ملموس، وهناك حكمة إلهية وراء هذا التنوع، حيث خلق الله الإنسان كائنًا فريدًا يتمتع بالعقل، مما يمنحه ميزات تميزه عن باقي المخلوقات. هذه الخصائص جعلت البشر يختلفون في ميولهم واهتماماتهم وأفكارهم، مما أدى إلى ظهور التنوع الثقافي في مجتمع واحد. ويُعتبر العراق بلد التنوع الديني والمذهبي والعرقي، وهذه الظاهرة ليست حديثة بل تعود إلى جذور عميقة في تاريخه. كل مكون من مكونات الشعب العراقي يحمل تراثه الفكري والسياسي واللغوي. المسلمون، المسيحيون، وغيرهم من الأديان والمذاهب لم يكونوا طارئين على العراق، كما أن العرب، الأكراد، والتركمان ليسوا غرباء عن نسيجه الاجتماعي. إن العراق يمثل منذ زمن طويل مساحة رائعة من التنوع. ويُعد التنوع الاجتماعي سلاحًا ذا حدين، حيث يمكن أن يكون نعمة أو نقمة، وذلك يعتمد على توافر مبدئين أساسيين: الحرية من جهة، والعدالة من جهة أخرى. إذا توفرت هذان المبدآن، يمكن أن يسهم التنوع في تعزيز الوحدة والتعايش، بينما في غيابهما قد يؤدي إلى التوتر والصراع ، على أن نفهم ليست الحرية هنا هي حرية فرد، ولا العدالة الاجتماعية هنا هي أنصاف هذا وذاك من أبناء العراق من ثروة العراق، بل حرية وجود أكبر، حرية مكونات، مكونات عرقية ودينية ومذهبية، تتصل بالتكوين الثقافي والروحي والديني والتراثي واللغوي لهذه المكونات، حيث يتحول العراق إلى فسيفساء متنوعة ظاهراً، كل القوميات وكل الأديان وكل المذاهب تمارس حقوقها بحرية مكفولة، بحرية واثقة من نفسها ، كما أن العدالة هنا تستوجب في بعض الأحيان إنصاف طائفة أو دين أو قومية بأكملها، لأن هناك ظلماً طائفياً وقومياً للأسف الشديد. اذن كيف يمكن تحقيق التعايش السلمي والسلام الاجتماعي في مجتمع يتميز بتعدد الأديان وتنوع الثقافات واختلاف الأفكار؟ هذا هو السؤال الذي سأحاول الإجابة عنه في هذه الدراسة.

كلمات مفتاحية : التنوع الاجتماعي ، التعايش السلمي

Social Diversity And Peaceful Coexistence In Iraq - A Social Theory Study

L. Siham Kadhem Mutlaq
College of Education for Womwn - Al-Qadisiyah University

Abstract

Human societies based on pluralism and cultural diversity are due to the divergence and diversity of the basic backgrounds of this diversity, and they can be dealt with consciously when contradiction turns into integration, collision into coexistence, and fanaticism into tolerance. Diversity, multiplicity, and difference in the universe is a tangible reality, and there is divine wisdom in this diversity, so God created man as a creature different from other creatures that carries some characteristics and excels over them with reason. These characteristics made humans differ in their moods, interests, aspirations, and ideas, hence the diversity and cultural difference in society It is based on diversity under one state, and Iraq is a country of religious, sectarian and ethnic diversity. This phenomenon was not unique to Iraq, rather it is as old as Iraq.

Each component of the Iraqi people has its own intellectual, political, heritage and linguistic history. Muslims are not foreign to Iraq, nor are Christians. Nor other boredom and bees. Likewise, the Arabs of Iraq were not strangers to the Iraqi body, nor were its Kurds, nor left it, nor any of the nationalities that participated in its formation. It depends on providing these two essential principles, i.e. freedom on the one hand, and justice on the other hand, provided that we understand that freedom here is not the freedom of an individual, nor is social justice here the half of this and that of the sons of Iraq from the wealth of Iraq, but rather the freedom of a greater existence, the freedom of components, Ethnic, religious and sectarian components, related to the cultural, spiritual, religious, heritage and linguistic composition of these components, as Iraq turns into a seemingly diverse mosaic, all nationalities, all religions and all sects exercise their rights freely, with guaranteed freedom and self-confidence, just as justice here sometimes requires fairness to a sect or An entire religion or nationality, because unfortunately there is sectarian and national injustice. How can peaceful coexistence and social peace be achieved in a society with multiple religions, diverse cultures, and diversified ideas? This is what I will try to answer in this study.

Keywords: social diversity, peaceful coexistence

الفصل الاول :

اولا : مشكلة البحث

يجد العديد من الباحثين وعلماء الاجتماع أن التنوع الديني والمذهبي والعرقي في أي مجتمع علامة على الصحة والقوة. كل مجموعة دينية أو قومية تحمل تاريخًا وثقافة وخبرة فريدة، مما يخلق فرصة متميزة للتلاحم الفكري والتبادل الثقافي. من خلال تفاعل هذه الخبرات والثقافات، يمكن بناء مجتمع مبدع يتحدى الفناء ويتغلب على الفقر الفكري والروحي، مما يعزز من قدرته على التطور والازدهار. الحقيقة أن هذا التنوع لا يمكن أن يكون مصداقاً لما يقوله هؤلاء العلماء، إذا لم تتوفر مصفوفة من الشروط، والمستلزمات، فالتنوع وحده طاقة محايدة تحتاج إلى أسباب من خارجها، تجعلها فعّالة نشطة، معطاء، ومن أبرز هذه الشروط هي الحرية والعدالة. الحرية الفكرية والدينية والروحية ، والعدالة الاجتماعية بكل ما تعنيه من تساوٍ في الحقوق والواجبات بين كل أبناء الوطن الواحد . ولذا ليس غريباً أن يرى بعضهم أن التنوع الاجتماعي في نطاق الوطن الواحد قد يتحول إلى خطر يهدد وحدة الوطن، وقد يكون مدعاة خلق الكثير من المتاعب، بما في ذلك حروب أهلية، التي هي من أسوأ ما تصاب بها المجتمعات المتنوعة عرقياً ودينياً ومذهبياً. الا اننا في هذا البحث نحاول ان نسلط الضوء في ثناياه حول التنوع الاجتماعي في العراق ودوره في التعايش السلمي .. اي سنركز بلمحاور على الجانب الايجابي للتنوع وكيفية تحقيقه للتعايش السلمي داخل المجتمع العراقي .

ثانيا: اهمية البحث : تاتي الاهمية لموضوع البحث من جانبين اولهما ان التعايش السلمي ضرورة حتمية لضمان الاستقرار الامني والاقتصادي والثقافي فهو يمثل هدف المجتمعات التي تؤمن بالتنوع ولا يمكن ان تنضج ثماره دون التعايش والتسامح ، بذلك ان التركيز على التعايش السلمي في مجتمع متعدد ومتنوع هو بحد ذاتة مهم لاغناء ذلك التخصص بالدراسات جول التنوع والتعايش ، اضافة الى الجانب

التطبيقي فهو ممكن ان يستفاد منه في الدراسات السابقة وكذلك ممكن ان يستفاد منه في الجمعيات او المؤسسات التي تحاول ن تقدم خدمات للفرد داخل المجتمع العراقي وكيفية الوصول الى التعايش السلمي القائم على التسامح والتعاون في بلد متعدد القوميات والثقافات و000 .

ثالثا: اهداف البحث : يهدف البحث الى التعرف على

1- مفهوم التنوع الاجتماعي
2- مفهوم التعايش السلمي
3- العلاقة بين التنوع الاجتماعي والتعايش السلمي في العراق

رابعا : تحديد المصطلحات او المفاهيم

1-التنوع الاجتماعي

التنوع في اللغة يعني الاختلاف داخل صنف أو نوع أو سمة ثقافية واحدة. يمكن أن يشمل ذلك وجود أنواع مختلفة من السمات الثقافية داخل إثنية معينة، أو تنوع في الأديان السماوية المختلفة، أو اختلاف المذاهب داخل الدين الواحد. يُقال إن الشيء يتنوع إلى أنواع، والجمع هو "أنواع"، سواء كانت قليلة أو كثيرة. (1)

بذلك، يمكننا تعريف التنوع بأنه الاختلافات التي تتواجد داخل النوع الواحد، وهي عادةً اختلافات ليست حادة، بل تكون تدريجية. هذا النوع من الاختلاف يسمح بتنوع التجارب والأفكار داخل الإطار الثقافي أو الاجتماعي ذاته.

التنوع الاجتماعي: يشير إلى الأدوار والحقوق والمسؤوليات المختلفة المرتبطة بالنساء والرجال، بالإضافة إلى العلاقات القائمة بينهم. لا يقتصر هذا المفهوم على النساء والرجال فقط، بل يشمل كيفية تحديد خصائصهم وسلوكياتهم وهوياتهم من خلال التعايش الاجتماعي. يرتبط التنوع الاجتماعي بشكل عام بحالات اللامساواة في النفوذ وإمكانية الوصول إلى الخيارات والموارد ، وتتأثر المواقع المختلفة للنساء والرجال بالحقائق التاريخية والدينية والاقتصادية والثقافية، ومن المؤكد أن هذه العلاقات والمسؤوليات ستتغير مع مرور الزمن. تشكل علاقات التنوع الاجتماعي ديناميكية تتسم بالصراع والتعاون في آن واحد، وتداخلها عوامل أخرى مثل الطبقة والطائفة والعمر والحالة الاجتماعية .(2)

2-مفهوم التعايش في اللغة

التعايش في اللغة يعني "تعايشَ يتعايش، تعايشًا"، ويُشير إلى الحالة التي يعيش فيها الأفراد أو الجماعات معًا في وئام:

- تعايش الجيران: يعني أنهم يعيشون في مودّة وعطاء وحسن الجوار.

- تعايش الرفيقان: يدل على الألفة بين شخصين في غربتهما.

- تعايش الدول: تشير إلى التعايش السلمي، حيث تتفق الدول على عدم الاعتداء.

- تعايش الناس: يعني أنهم وُجدوا في نفس الزمان والمكان.

يبرز التعايش أهمية الحياة المشتركة والتفاهم بين الأفراد والجماعات. (3)

التعايش في الاصطلاح يعني العيش المتبادل مع الآخرين، الذي يعتمد على السلم والمهادنة. (4)

التعايش السلمي في المجتمع : يعني أن هناك مجتمعًا طائفيًا يعيش أفراده في وئام ، وتفاهم يتشاركون في التسامح والتوافق رغم اختلافاتهم الدينية والمذهبية.

التعايش السلمي : هو مفهوم يسعى إلى" إنشاء بيئة من التفاهم بين الشعوب، بعيدًا عن النزاعات والعنف. يتضمن هذا الاحترام لحقوق الآخرين وحرياتهم، والاعتراف بالتنوع واختلاف الآراء، فضلًا عن تقدير الثقافات المتعددة " .

التسامح هو ثمرة للتعايش ونتيجة له، فلا يمكن تحقيقه إلا عبر العيش المشترك بين جماعة من الناس تحمل أفكارًا ورؤى متنوعة، وتمارس عادات مختلفة وتنتمي إلى ديانات متباينة. إنه قيمة نبيلة لا تصدر إلا عن نفوس كريمة ، للتسامح الديني آثار إيجابية على الفرد والمجتمع، حيث يسهم في البناء الحضاري، ويعكس نمطًا من السلوك الإنساني الذي يعترف بالآخر ويؤثر فيه ويتأثر به. وهذا يؤدي إلى حضارة قوية ومستدامة، قادرة على مواجهة التقلبات المختلفة ، اذ يدعو التعايش السلمي الناس إلى التسامح والتآخي، وعندما نحقق ذلك، يمكن لمجتمعاتنا العربية والإسلامية ودول العالم بأسره أن ترسم ملامح الحضارة الإنسانية المبنية على الحقوق والواجبات.(5)

والتعريف الاجرائي للتعايش السلمي :التفاهم بين العناصر والمكونات والطوائف بمختلف انواعها (دينية ، مذهبية ،اثنية) داخل المجتمع العراقي ونعبر عن هذا التعايش بالتقارب والتسامح والانسجام والتكامل والتلاقي والتجانس .

الفصل الاول

- **خصائص التكوين الاثني في العراق**

أولاً: جدل التعدد :

لقد كانت وحدة العراق، خاصة بعد حرب الخليج الثانية، موضوعًا للنقاش المستمر، حيث تم تناولها من زوايا مختلفة، بعضها موضوعي وبعضها الآخر تعصبي. في هذا السياق، تُلقى اللوم على العراق ككل بدلاً من نظام الحكم، فيما يتعرض للأقليات الأثنية من تمييز وظلم. بينما يصر البعض على ترديد شعارات "يوتوبيا الوحدة" دون بحث في الشروط اللازمة لتحقيقها ، ففي خضم هذه المناقشات، يجب الاعتراف بأن وحدة المجتمع تتطلب وجود علاقات إيجابية بين الجماعات الأثنية، من خلال التزاوج، والمجاورة، والمشاركة في المشاريع الاقتصادية، والشعور بالانتماء المشترك رغم تنوع الخلفيات. ورغم تعدد المرجعيات الثقافية، فإن هذا لا يتطابق دائمًا مع المفهوم السياسي للوطن ، فيمكن القول إن العراقيين يشعرون بوحدة مجتمعهم، لكنهم لا يشعرون دائمًا بوحدة انتمائهم للدولة. وبينما يتم التأكيد على الأخوة والتاريخ المشترك بين الجماعات الأثنية (وحدة المجتمع)، تظهر الحاجة إلى صيغ مختلفة للهوية الوطنية (الوحدة السياسية). وهنا، تظل الفجوة بين المعلن والخفي واسعة، كما أن الفجوة بين الواقع والطموح تظل قائمة ، ويعتقد بعض الباحثين أن التكوين الاثني (الموزائيكي) في العراق يدل على هشاشة المجتمع، لكن يمكن القول إن المجتمع العراقي متنوع. ومع ذلك، فإن العلاقة بين الجماعات الأثنية والدولة تتسم بالانقسام، وهو ما يظهر بوضوح في الظروف المختلفة، حيث تعاملت الدولة مع هذه الجماعات بقوة، مما أثر على مواقفها ، تزداد العلاقات سوءًا عندما تعبر الدولة عن مصالح معينة أو تتبنى توجهات عشائرية. لذا، فإن تقييم الأوضاع الحالية واستشراف مؤشرات المستقبل يتطلب فهمًا موضوعيًا للتكوين الاثني في العراق. من الخطأ تجاهل التاريخ أو الادعاء بأن كل جماعة أثنية تتصرف بوعي مستقل، وأن العوامل الخارجية والجغرافيا ليس لها تأثير.(6)

ثانيا: جدل التنوع المتأصل : في العراق، تتواجد مكونات متعددة تشمل العرب والأكراد والتركمان وغيرهم، بالإضافة إلى تنوع ديني يتمثل في السنة والشيعة والأيزيديين والكاكائيين واليهود والصابئة

والمسيحيين، بما في ذلك الكاثوليك والأرمن والسريان. كما يضم العراق عددًا كبيرًا من العشائر، ويُستخدم فيه العديد من اللغات مثل العربية والكردية والتركمانية والسريانية، التي تنقسم بدورها إلى لهجات عدة، ويبدو التداخل اللغوي واضح في الابجدية العربية لدى الورانية واللاتينية لدى البهدنانية ، وبينما تقوى العلاقات القبلية بين العرب والاكراد تضعف بين التركمان ، وتتميز اللغة بموقعها البارز في المنظومة الثقافية، حيث تأخذ طابعًا سياسيًا حتى داخل الجماعة العرقية الواحدة. يرى البعض أن العراق في مطلع القرن العشرين شهدت تحولات مهمة في هذا المجال. (لم يكن شعبا واحدا او جماعة سياسية واحدة) فهو بالاضافة الى العديد الكبير من الاقليات فان العرب انفسهم كانوا يشكلون مجتمعات متمايزة ومختلفة بالرغم من تمتعهم بسمات مشتركة .(7)

والواقع ان في هذا القول نصف الحقيقة ، فالعراق كان جزءا من الامبروطورية العثمانية ولم تكن فيه سلطة سياسية وطنية ، وكان شعب العراق موحدًا بدرجة كبيرة، وأقوى دليل على ذلك هو ثورة العشرين، التي تعكس فعلًا جمعيًا شعبيًا لم يظهر فجأة، بل هو نتيجة تاريخ طويل من مشاعر الانتماء. كما وصفهم بطاطو، كان العرب غالبًا ما يتحدون في صراعهم ضد الدولة العثمانية ، صحيح ان اماراتهم لم تكن دائمة الانسجام مع بعضها فان ذلك لا يرجع الى الانغلاق على الذات ، بل الى مشكلات تتعلق بالارض والمياه والى مدخلات السلطات العثمانية واستخدامها سياسا من مبدء فرق تسد ، ومن يقرأ الاستفتاء الذي قام به الانكليز حول مستقبل العراق يجد انها ركزت على اختيار (عراق مستقل) بل ان الاجابات في بغداد ركزت على ان العراق من شمال الموصل الى الخليج العربي له القدرة على ادارة نفسه بنفسه (8)

ثالثا : جدل الجغرافيا : لا يعادل حضور التاريخ في العراق الاتأثير الجغرافيا عليه فالهضبة من الشرق يغريها اذ تراه سهلا ممتد وتشتهيه الصحراء من الغرب اذ تراه سواد يانع الثمار مستقر المنازل وترى الجبال من الشمال منحدرا يمكن التحصن منه ، وتتحكم نافذة الخليج الضيقة من جنوبه بنسيج البر والبحر المتحرك منه واليه ، ولقد لعب ثالوث الهضبة والجبل والصحراء دورا في صياغة هوية السهل ويظهر تاريخ الصراع العثماني الفارسي على ساحة العراق محاولات لاضفاء الهوية الطائفية على الجغرافيا ، ولاشك ان الارض بكل تضاريسها ظلت ثابتة لكن جدل الجماعات والثقافات ظل مستمرا عليها من دياربكر الى اربيل الى الاسكندرون وصولا الى المحمرة وعبادان حتى اليوم ولذلك قلنا ان الكلام عن تجزئة العراق لا يثير هواجس العراقيين بقدر مايثير قلق جيرانهم ، فالجغرافيا تزدحم بعوامل تقاطع وانفصال تتحكم فيها قبضة السياسة التي ترتخي هنا مرة وهناك مرة اخرى طبقا لمصالح المركز اكثر مما هي مصالح المحيط . ومن ثم فأن وحدة العراق تعني فيما تعنيه وحدة جيرانه كما ان وحدة العراق ليست حالة طارئة ولا مختلفة بل ان بعدها التاريخي واضحا تماما (9) . ويذهب ويلكوكس الى ان اسم العراق هو الاسم المألوف لدى المواطنين بدلا من بلاد الرافدين وانه عارض اي اتجاه للفصل بين الولايات الثلاث (البصرة ، بغداد ، الموصل) واضاف (وقد اتضح بعد تطور الاحداث وما تمخضت عنه ان حدسنا كان سليما دون ادنى ريب 0(10)

رابعا : جدل الثقافات

الثقافة ارث وهي تتصل بالجغرافيا قدر انتمائها للتاريخ وهي عامة في بالوطن الذي يضم جماعات فرعية داخل الجماعات التي يضمها الوطن . والثقافة كل مركب متفاعل العناصر (دين ولغة وعادات وتقاليد واعراف وقوانين ...الخ مما يتعلمه الانسان بوصفه كائنا اجتماعيا)، ولقد قيل ان اكتشاف النسبية الثقافية ايى اكتشاف التنوع الثقافي بين الجماعات والاقرار بوجوده لا يقل خطرا عن اكتشاف قانون الجاذبية لان النسبية الثقافية تعني من بين ماتعنيه الاعتراف بوجود الاخر واحترام خصوصيته ، وتبدأ الهيمنة الثقافية حين ترى جماعة ما ان تاريخها هو تاريخ المجتمع كله . وان ثقافتها تمتلك حق الهيمنة على الثقافات الاخرى وان التمركز الاثني –الثقافي يقطع سبل الجوار ويؤسس العداء ويغرز الصور النمطية الخاطئة لكل جماعة عن الاخرى ، وتُعتبر اللغة أحد أهم عناصر الثقافة، حيث تظهر تداخلًا فريدًا بين الكردية

والعربية والسريانية القديمة، التي لا تزال حاضرة في حياتهم. يشير أحد الكتاب إلى أن الإيزيدية تشبه قصرًا تاريخيًا يظهر بمظهر إسلامي مزين بنقوش عربية وعبارات كردية. وإذا أزلنا الأصباغ الخارجية عن الجدار، سنكتشف تحتها طبقة من النقوش المسيحية بأيقونات ملونة وصلبان منحوتة. وإذا تعمقنا أكثر في الحفريات، سنجد طبقة ثالثة من الجداريات الآشورية ورسومات لآلهة النهرين وكتابات مسمارية ... الخ .(11)

الواقع الاجتماعي للتنوع الاثني في العراق

في الماضي لم يكن المجتمع في العراق كحالة اليوم يشكو من وعي سياسي قائم على اسس اثنية ودينية ومذهبية بهذه الدرجة فالمزايا والخيارات التي يتيحها للمهاجرين والغزاة والفاتحين جعلت منه يشهد اوسع ظاهرة حراك اثني عرفتها الشعوب قديما لكنه الف واعتاد على علاقات تواشج وتصاهر بين الاثنيات المختلفة التي وضعت رحالها فوق ارضه (12) لا سيما بعد فتوحات نشر العقيدة الاسلامية التي كان العراق ممرا ومسرحا ومنطلقا لحملاتها واحداثها وانتشارها .

ان من أكبر الأخطاء التعصبية التي مارستها الدولة الحديثة في العراق، سواء من قبل الحكومات أو النخب السياسية، كانت تتمثل في فكرة أن الوطن العراقي هو جزء من الوطن العربي، وأن الشعب في العراق هو جزء من الشعب العربي. بناءً على هذا الموقف، اعتبرت الدولة أن وجود العنصر العربي شرط أساسي، وأي منطقة تفتقر إلى أغلبية عربية ليست عراقية بالكامل ، ونتيجة لهذا التعصب الإثني، قامت الحكومات المتعاقبة بتطبيق سياسة تعريب الأكراد والتركمان وبقية الإثنيات، مما أدى إلى محاربة وطنيتهم العراقية، وانتهاك حقهم في المواطنة. كما أن نظام البعث مارس انتهاكات خطيرة من خلال محاولة تعريب المناطق الكردية والتركمانية، عبر تهجير سكان تلك المناطق واستقدام السكان العرب بدلاً منهم.(13).

الا ان العلاقات الاجتماعية التي تشكلت بين الجماعات الاثنية في العراق لم تبق على وتيرة واحدة انما تغيرت تبعا للظروف السياسية والاقتصادية المتغيرة التي مر بها العراق على امتداد تاريخه الطويل .

الفصل الثاني :الواقع الاجتماعي للتنوع الديني في العراق

على الرغم من ان التنوع الديني ظاهرة قديمة في العراق الا ان المميز فيها هو سيادة الجماعة الاسلامية ووعي المسلمين بالتفوق والارجحية على الاديان الاخرى وقد يرجع السبب في ذلك اما لكون الاسلام خاتم الاديان السماوية واما لأغلبيتهم العددية سيما وان الاعداد لها اهميتها في عموم الشرق الاوسط لهذا حرصت جماعة المسلمين عموما في علاقاتها الاجتماعية على التظاهر بعلاقات متسامحة مع الجماعات الدينية الاخرى الا ان هذه الجماعات كانت عادة ماتقررها الاحداث والعلاقات السياسية اذ بمجرد ان تطالب الجماعات الدينية الاخرى او تصعد من مطالبها الساسية والثقافية والاقتصادية فانها تدخل منطقة الحرام السياسي والاجتماعي فعلى الرغم من الكلام عن مظاهر التسامح الاجتماعي الفردية التي يبديها بعض المسلمين تجاه المسيحين فان المسيحين مالوا طوال تاريخهم في العراق الى دمج حذر من الاسلام (14) وان علاقاتهم الاجتماعية بالمسلمين كانت بشكل عام يسودها الحذر والخوف وتصل الى حد التنازل عن الحقوق في معظم الاحيان . ومثلما يخشى اتباع الديانات من المسلمين فان المسلمين ينظرون الى اتباعها بدونية او بوصفهم اشخاصا ضعفاء ونجسين بالنسبة لاتباع الديانة المندائية كمثال وكفار بالنسبة للايزيديين ، بحيث نادرا مايتم التزاوج بينهم والاهم من هذا ان العلاقة بهذا الشكل اضحت ثقافة يتلقاها ابناء المسلمين في عملية التنشئة الاجتماعية لتصبح معيارا يعتمد لوصم ابناء الديانات الاخرى على الرغم من انهم لا يشكلون تهديدا سياسيا مباشرا للاسلام كون ديانتهم ديانات غير تبشيرية (15) الامر الذي دفع المندائيون للعيش بعزلة وانطوائية نظرا للتمييز الاجتماعي والاهانات التي يتعرضون لها اذ يعدهم المسلمون انجاسا بناء على شبهات لا حقيقة لوجودها اعتقادا بانهم يزهقون ارواح المحتضرين منهم وعبدة كائنات غير موجودة (اشميدهيا) (16) ولا يختنون صبيانهم ويخنقون الطيور قبل طبخها واكلها

ولذلك فهم لا ياكلون معهم ولا يشربون في الاواني التي يشربون منها وبالمقابل يرى المندائيون ان التزاوج منهم غير مقبول بتاتا اذ يعدون من يتزوج او تتزوج مسلما خارجا عن ديانتهم ورغم ذلك فان المندائيين يظهرون بالمقابل تسامحا وتقدير للمسلمين وغيرهم بدرجات عالية .

الواقع الاجتماعي للتنوع المذهبي في العراق

يبدو ان التنوع المذهبي في العراق اكثر تعقيدا مما يمكن ان يصوره التنوع الاثني والديني لما احدثه من اثر كبير في البنية العلائقية للمجتمع في العراق فالعنف الدموي والخسائر البشرية وتعثر الوحدة وعدم استقرار سلطة الدولة ماهي الا نتائج ملموسة لطبيعة هذا التنوع واسقاطاته على الوعي والهوية ، ان انقسام الجماعة الاسلامية في العراق يعود الى مرحلة مبكرة من التاريخ الاسلامي اذ ان المذاهب الدينية واقع قديم في تاريخ الشرق الادنى متصل مباشرة بالفروق بين الاديان والانقسامات داخل كل دين فهي تعبر عن كيفية انعكاس العامل الديني في حياة الناس التي تسرب اليها وانتشر فيها (17).

ان التنوع المذهبي في اي مجتمع لا يعد بنفسه دالة او مؤشر على وجود صراع او تنافس على قواعد هذا التنوع او اسسه الا اذا ارتبط بالمجال والتمأسس السياسي الامر الذي يحوله الى انقسام طائفي ويغدو مرتبطا بالسياسة ارتباطا متلازما وفق الجدلية الاجتماعية ،وفي الواقع ان الجماعة الشيعية او التشييع لم يذهب بعيدا عن هذه الحقيقة اذ انه نشأ على وفق منهج ورؤى موضوعية لا تخرج من طبيعة الاهداف والمصالح والمطالب السياسية ، لقد وقف أتباع المذهب الشيعي على مر التاريخ في مواجهة ممارسات مؤسسات الحكم لقرون عدة، مما جعلهم عرضة لاضطهادات وضغوط استمرت لفترات طويلة، وخلفت جراحًا عميقة. (18) ولا يعد العراق استثناء فان الواقعة التازم الطائفي بين اهل العراق من المسلمين تكاد تكون علامة فارقة في مسار تاريخهم وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية وان الصراع الطائفي كان موجودا في العراق منذ صدر الاسلام وطالما شهدت بغداد في العهد العباسي معارك بين المحلات السنية والشيعية ثم بلغ هذا الصراع اوجه في نزاع الدولتين الايرانية والعثمانية (19) ، الا ان الدعم المستمر الذي حظى به العرب السنة من قبل الدولة العثمانية اضفى على العلاقة بين المذهبين صبغة سياسية وطبقية اذ ادى الى هيمنة السنة على الدولة الحديثة فيما حرم على الشيعة من القدر نفسه من السلطة والنفوذ نتيجة فرض الية غير مقبولة لتعاقب هذه السلطة ، الامر الذي خلق رد فعل معاكس زاد من حدة الانشقاق بين الطرفين (20) وانعكس على علاقاتهم الاجتماعية مما ادى الى ندرة اختلاطهم وقلة التزاوج بينهم كانوا، حتى في المدن المختلطة، يعيشون في أحياء منفصلة، حيث كانت لكل جماعة حياتها الخاصة. (21) .

وبعد نشأة الدولة العراقية لم ينفصل واقع العلاقات الاجتماعية بين السنة والشيعة عن الواقع السياسي واسقاطاته لا على واقع الجماعات ومعاش حياتهم فحسب بل وفي تصورهم لاشكال هذه العلاقات وتخيلهم لانماط الحياة بشكل عام (22).

اذ ان تحول شيوخ العشائر الى كبار ملاكي الاراضي واصحاب مصالح في الدولة العربية الناشئة في العهد الملكي وبالمقابل تحول افراد العشائر الشيعية الى فلاحين معدمين بهذه الالية جرت عملية دمج شيعة القبائل الريفية ، اذ صارت النخب السياسية الناشئة في بغداد تتحكم بعلاقاتهم الاجتماعية وضبطهم بشكل كبير (23). ومن جانب اخر كان للدولة واجراءاتها دور في تحديد الواقع الاقتصادي والطبقي للجماعات المذهبية في العراق الذي ينعكس بشدة على علاقاتها الاجتماعية ، فالشيعة الفقراء في العراق مثلا لم يكونوا فقراء لانهم شيعة بل بسبب الاستيلاء على اراضيهم من قبل الشيعة المقربين للدولة وسياسات التمييز في توزيعها (24) .

وفي الحقب اللاحقة من عمر الدولة العراقية لايمكن نكران وجود علاقات بين الجانبين اخذت في حقب متقطعة اتجاها ايجابيا تمثل بالمصاهرة المختلطة نتيجة ماعمقته وسائل الاتصال والتجاور وربما اسهم الانحسار الديني عن السياسة في ظل الدولة العراقية الحديثة في هذا التوجه اذ شهد المشهد اليومي العراقي

حالات عدة من الزواج المختلط بين ابناء المذهبين في ظاهرة شعر معها العراقيون بالفخر(25) ، الا ان ذلك لا يمكن ان يرقى الى مستوى توصيف العلاقة ب(التجانس الاجتماعي) بين اتباع المذهبين فالشيعة كان يطلق عليهم في بغداد والمحافظات الغربية اسم (الشروكية) لا على اعتبار نزوحهم من الجنوب الشرقي للبلاد ، انما كدلالة رمزية تشير الى الدونية والانحطاط والهاشمية التي ينظر بها السنة الى الشيعي القادم من الجنوب ، انما هو مصطلح لا يخلو من نزعة تميزية ، يُعتبر هذا نموذجًا لاضطهاد الثقافة الاجتماعية للشيعة. (26)

المبحث الثالث : التنوع والتعايش من منظور سسيولوجي

يتناول الحديث عن التعايش بين المكونات المتنوعة في مجتمع يمتلك حدودًا سياسية راسخة قيمتين أساسيتين: (الاولى : قيمة الاختلاف والثانية : قيمة المساواة) اذ ينبغي الاعتراف بحق الجميع في الاختلاف، ولكن هذا الاعتراف يجب ألا يؤدي إلى التفرقة أو بناء مكونات اجتماعية منعزلة عن بعضها. يجب أن لا يؤدي التعايش إلى انتهاك الحقوق، فهو لا يتطلب الانقسام أو التغلب على الثوابت والأصول لدى الأطراف، بل يتطلب الالتزام بالتفاهم، وتوسيع المشترك، وإدارة نقاط التباين والاختلاف بروح حضارية. هذه العملية تسهم في بناء علاقة إيجابية بين حق الاختلاف وضرورة المساواة، حيث أن أي خلل في هذه المعادلة يمكن أن يؤثر سلبًا على حقيقة التعايش في أي مجتمع أو وطن.

مفهوم التعايش، في طبيعته ومحتواه، لا يلغي التنافس أو الخلافات بين المكونات المختلفة، بل يحدد وسائلها وينظم تفاعلاتها. فالتعايش لا يعني الجمود أو الروتين، بل يُعتبر حالة طبيعية وأساسية للوجود الإنساني. ومع ذلك، يجب أن نرفض تحول الاختلافات إلى وسيلة للإساءة إلى كرامة الآخرين أو انتهاك حقوقهم الشخصية والعامة. لذا، يعتبر التعايش، كمفهوم وممارسة، غير مُشرع لأي طرف، مهما كانت الآراء المختلفة، التعدي على الحقوق أو تجاوز أصول التعامل وفق معايير العدالة والأخلاق.

لذلك، فإن تحقيق توازن حي بين مفهومي الاختلاف والمساواة هو جوهر التعايش. فالاختلاف لا يؤدي إلى الظلم، بل يعزز قيم العدالة والمساواة. إذا تم تحقيق هذه المعادلة، فإن مفهوم التعايش سيصبح راسخًا في المجتمع والفضاء الوطني. (27).

شروط التعايش

1- يستند التعايش إلى مجموعة من الأسس الضرورية، وهي:
2- إقرار التعدد والتنوع: الاعتراف بالتنوع كواقع جغرافي وتاريخي، بما يتضمنه من مخرجات دينية ولغوية وثقافية.
3- الاعتراف المتبادل بالآخر: يجب أن تعترف جميع أطراف المجتمع ببعضها البعض من حيث الوجود والحقوق، ومن ثم تقبل قواعد العمل السياسي السلمي.
4- احترام الثوابت والخصوصيات: يتضمن احترام الثوابت والخصوصيات ضمان حقوق جميع الأطراف والحفاظ على مستقبلها وقيمها. يجب التعامل مع الخصوصيات وفقًا لأسس العدالة والمساواة، مع الالتزام بسيادة القانون ودولة المؤسسات..
5- إدارة التنوع والاختلاف بشكل مناسب: لا يعني " التعايش الوطني" تنازل كل طرف عن ثوابته وخصائصه، بل يتطلب إدارة الاختلافات بشكل حضاري دون إلغاء الخصوصيات أو صهر الاختلافات الفردية والفئوية.
6- التمثيل العادل لكل الأطراف : كلما استطاعت الدولة أن تعبر عن وتمثل مواطنيها بشكل عادل ودون تمييز أو إقصاء، زادت فرص نجاح المجتمع في التعايش والتماسك. والعكس صحيح، حيث يؤدي غياب التمثيل العادل إلى ضعف التماسك الاجتماعي. (28)

7- النظام الديمقراطي اللامركزي : لا يمكن تحقيق حالة التعايش المستدامة بين مكونات المجتمع وفئاته إلا في إطار نظام ديمقراطي تعددي ولامركزي حقيقي. يجب أن يكون هذا النظام قائمًا على أسس القانون والمؤسسات، ويستوعب الاختلافات والتنوعات بجميع أشكالها ودرجاتها، مع ضمان حماية الخصوصيات لكل الأطراف..

النتائج والتوصيات

1. يُعد المجتمع العراقي مجتمعًا متنوعًا اجتماعيًا، إلا أن النقاش حول التقارب الديني غالبًا ما يركز على الديانتين الإسلامية والمسيحية، مما يؤدي إلى تهميش المكونات الأخرى.

2. يُعزى غياب ثقافة الحوار الديني وانتشار الخطاب الطائفي إلى عدم تحقيق التعايش السلمي في المجتمع العراقي.

3. يُعتبر الحوار خطوة أساسية لتعزيز التعايش السلمي بين مكونات الوطن، من خلال تعزيز ثقافة النقاش ورفض التعصب الديني، سواء كان إسلاميًا أو مسيحيًا.

4. يحتاج العراق اليوم بشكل خاص إلى مفاهيم مثل "التعايش السلمي" و"قبول الآخر".

5. من الضروري تطوير منهج دراسي يركز على التربية الدينية لمختلف المذاهب والطوائف في العراق، ليتمكن الأفراد منذ الصغر من التعرف على التنوع في بلدهم، وتعزيز قيم الوئام والسلام وحقوق المواطنة والمشاركة في بناء الوطن.

المصادر والهوامش

1- ابن منظور ،لسان العرب ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، مجلد(9) ، 1968، ص91.
2- بسام جرارة ، جامعة القاهرة 2002
3- ابي طاهر ،القاموس ، ط1،بيروت ، داراحياء التراث العربي ، 1991،
4- د.عباس الجراري ، مفهوم التعايش في الاسلام ، مجلة الجراري (المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم الثقافية ، اليونسكو) العدد 14 ،ص27.
5- احمد علي سليمان ، مجلة اخبار الخليج ، العدد 15788 ، يونيو 2021مقالة منشورة على شبكة الانترنيت في 24 يونيو ،2017 .
6- د.وميض عمر نظمي ، التطور السياسي في العراق ، بغداد ، وزارة التعليم العالي ،بدون تاريخ ،ص99.
7- حنا بطاطو، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني إلى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1995، ص. 31.
8- عبد الرزاق محمد اسود ، موسوعة العراق السياسية ، المجلد الثاني ، بيروت ، الدار العراقية للموسوعات ،1986،ص174
9- د.صالح احمد العلي ، الخراج في العراق في العصور الاسلامية الاولى ،بغداد ،المجمع العلمي 1990 ،ص79
10- فؤاد قرانجي ،العراق في الوثائق الايرانية البريطانية (1905-1930) بغداد ، دار المالوف ،1989،ص28
11- د. كريم محمد حمزة، "التكوين الإثني في العراق وجدل العنف"، جامعة بغداد، مكتبة الآداب، مؤتمر السليمانية: ثقافة اللاعنف في التعامل مع الآخر، بيت الحكمة، بغداد، ط1، 2008، ص. 124.
12- سليم مطر ، جدل الهوية عرب ...اكراد ...تركمان ... صراع الانتماءات في العراق ،بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،2003،ص65.

13- ستيفن همسلي لونكريك وفرانك ستوكس ، العراق منذ فجر التاريخ ،ترجمة مصطفى نعمان احمد ، بغداد ،مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي ،2008 ، ص58.
14- د.علي وتوت ، التنوع الاجتماعي وانتهاك حقوق الانسان في العراق ،ص7
15- رشيد خيون ،الاديان والمذاهب بالعراق ، بيروت ، منشورات الجمل ،2003،ص150.
16- ناصيف نصار ،نحو مجتمع جديد :مقدمات اساسية في نقد المجتمع الطائفي ، بيروت ، دار الطليعة ،ص104
17- د.علي وتوت ، التنوع الاجتماعي وانتهاك حقوق الانسان في العراق ،ص8
18- علي الوردي ، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ،ج1
19- غاريث ستانسفيلد ، العراق ،الشعب والتاريخ والسياسة ص67
20- حنا بطاطو، "الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني إلى قيام الجمهورية"، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1995، ص. 36.
21- ثامر عباس، جيوبوليتيكا ، صراع الهويات في المجتمع العراقي ،حفريات في المواريث الانثروبولوجية ،مجموعة باحثين ،المواطنة والهوية الوطنية ، بغداد ، الحضارية للطباعة والنشر ،2008، ص71.
22- فالح عبد الجبار ،العمامة والافندي ،ص103
23- فاروق سلوغلت وبيتر سلوغلت ،ص254.
24- خليل الربيعي ، التركيبة المذهبية في العراق ، مركز المستقبل للبحوث والدراسات بحث منشور على النت بتاريخ 11 اذار 2015 .
25- علي وتوت ، التنوع الاجتماعي وانتهاك حقوق الانسان في العراق ،ص8
26- د. محمد محفوظ ، صحيفة الرياض ، الطريق الى التعايش في 2013/9/17.
27- الشيخ حسن سلمان ، التعايش الوطني واشكالية الدين والدولة ، 2012 .